

ردّ على بحث: "المصطلح التربوي النفسي: تقييم لا تقويم"

لمباركية نوار-باتنة (الجزائر)

قرأت البحث الذي أنجزه الدكتور سبع أبو لبدّة، وتولّت مجلّتك الغراء، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني نشره إمتاعاً للقراء المهتمين في عددها الثاني والستين (كانون الثاني - حزيران ٢٠٠٢)، وهو البحث الموسوم بـ: (المصطلح التربوي النفسي: تقييم لا تقويم).

وأظن أن الدكتور سبع أبو لبدّة أحسن الاختيار لما تصدّى، وبنفس توافّة لهذه المشكلة الكؤود، وحاول جهد استطاعته تخليص المربين العرب من هموم مسألة مؤرّقة، شقت واستعصت، وصغرت عنها العيون والآذان، وتجانفت عنها الأقلام. فمثل هذه الأبحاث التي تتوغل في شعاب فقه معرفة المفاهيم والمصطلحات العلمية وفجاجها، وتستقصي استقصاءً حفيّاً عن جذورها، ورحلة تطوّرها الدلالي، فمثلها يكاد يكون مهجوراً ومتعفّفاً عنه، مما جعل الالتباسات تتسع وتتمدّد، والأخطاء تشيع وتستفحل، حتى أصبح القوم عندنا ينامون على هدهدات أرجوزة مفادها: (خطأ شائع خير من صواب مهجور أو مجافى)!. ولم تثر القضية عند الكثيرين مشغلة وقلقا وحيرة لخدمة اللغة العربية، وترقيتها.

وحيثما انكبت على قراءة البحث المذكور قراءة شغوفة بسبب مفعول جاذبية عنوانه، استوقفتني عدة ملاحظات تفرقت بين منهجية ومعرفية. وإذ أتشجع على جمعها وسردها، فإنني لا أحسبها تغدر أو تطمس أو تقلل من جهود الدكتور سبع أبو لبدّة، أطال الله أنفاسه الكتابية في مجال البحث العلمي التربوي، وهو مجهود يستحق التنويه إقراراً، والإشادة إلزاماً، وإذ أردف إليكم

بملاحظات المتواضعة، فإنني لا أراها موقرة ومنزهة. وأمل أن تحتضن بقلوب مفتوحة، وأن تقوم إذا ضمت اعوجاجا، وتزال الغواشي عنها إن حوت هفوات.

فأولاً؛ أرى بأن العنوان المقترح، والمتوج للبحث: (المصطلح التربوي النفسي: تقييم لا تقويم)؛ توشح بإقرارية شبيهة بالأحكام المسبقة، ومباغثة للقارئ، مما يفرض عليه أن يكون قارئاً مستسلماً، وغير محرّض لبلورة رأي حول الموضوع المناقش. فالعنوان الذي جمع بين الإثبات من جهة أولى، والنفي من جهة ثانية في هيئة حكم فيصل لا يحوصل مقصد البحث، ولا يثير بعض دروب مشكلته. ويمكن أن يعدل العنوان، وحسب مقترحي، ليأخذ الشكل الآتي: (المصطلح التربوي النفسي: أهو تقييم أم تقويم؟).

وهذه الصيغة الاستفسارية التي ستفتح شهية القارئ، لا تخلّ بالرصانة الأكاديمية ما دام الموضوع كتب لينشر في دورية (مجلة).

وثانياً؛ فإن الجزء المخصص في البحث للتعريغ على الدراسات السابقة التي تعرضت للمشكلة المعالجة أو لمثيلاتها انساق فيه الباحث وراء التعميم، حتى خيل للقارئ بأنه يتقصى قضية المفهوم LE CONCEPT بصورة عامة. وتؤكد الاقتباسات المستخلصة من الكتب للاستدلال والتحجج ذلك (انظر الصفحة ١١١). وإضافة إلى التعميم، هناك الاسترسال ملاحقة لأمثلة مفاهيمية تكاد لا تذكر صلتها بالموضوع. وفي رأيي، لا يجوز إقحامها حشواً ضمن ما صدق المفهوم (الماصدق بلغة الأقدمين، ويقابله حالياً في لغتنا الحديثة كلمة الأمثلة LES EXEMPLES، أي الأمثلة التي تصدق على المفهوم). وفضلا عن هذه وتلك، فإن الباحث، ولربما نسيانا إحسانا للظن، لم يذكر أو يلمح مجرد التلميح إلى البحوث الأجنبية ذات العلاقة المتقاطعة بمادة بحثه، وتجد هذه الملاحظة

مسوّغها قائماً في كون مشكلة البحث تتخطى حدود اللغة العربية، وينص منطوقها على ما يأتي: (ما المصطلح المناسب لترجمة كلمة EVALUATION...؟ وأضيف، فلو استعملت لفظة " تعريب" عوض كلمة "ترجمة" لزادت المشكلة وضوحاً.

وثالثاً؛ تطرح قضية صوغ المشكلة التي أنهيت بها الملاحظة المتقدمة أسئلة واستفسارات عميقة، من قبيل: هل موضوع البحث حبيس اللغة العربية؟ أم يتجاوز تخومها إلى لغات أجنبية أخرى؟ (لكلمة EVALUATION معنى واحد في اللغتين الإنجليزية والفرنسية). وهل القضية، في صلبها وجوهرها، تثير إشكالا في التعريب أم في الاشتقاق؟. ولا يتهدى لي، بأن مثل هذه المتاعمات ستجنب لغة الضاد حمل جرائر اللغات الأجنبية الأخرى.

ورابعاً؛ يقول الباحث في السطور المنضوية أسفل شبه العنوان: " أهداف البحث": (تهدف هذه الدراسة إلى صياغة مفهوم تربوي عربي معادل لكلمة EVALUATION...) وما دام المفهوم موجوداً، ومتداولاً منذ عهود، فإذن، كيف تعاد صياغته اشتقاقاً أو مجازاً أو تعريباً أو نحتاً؟ ولعل الصواب، أن يقال اختصاراً: تقدير أي اللفظتين أصوب في اللسان العربي، التقييم أم التقويم؟ ومن جانب آخر، فإن المفاهيم العلمية عالمية، والتحيز الذي يشتم من العبارة: (مفهوم تربوي عربي) فيه حبس وتضييق، وانكفاء على الذات، وانصراف عن الموضوعية.

وخامساً؛ يرادف الباحث في مواضع من بحثه بين لفظتي مفهوم CONCEPT ومصطلح: TERM (TERME بالفرنسية) كما في الصفحة ١٠٩ وغيرها. ويتجراً على الإدلاء بقاعدة خاصة به، إذ يدون

ما يأتي: (يستعمل الباحث كلمة مصطلح بمعنى مفهوم أو مدرك كلي في العربية وما يقابل TERM أو CONCEPT...) فهل يجوز لنا أن نقيم شرائع، ونطالب الآخرين بالاحتكام إليها؟ ومحوراً لظلال الغموض، استحضرت الفقرتين المقتبستين الآتيتين: إذ نقرأ في الأولى: (يعرف الفلاسفة المفهوم بالكيفية الآتية:) فكرة عامة ومجردة، تسمح بتصنيف الكائنات أو الأشياء، وتشتمل على فهم .EXTENTION وامتداد COMPREHENSION.

إنه تعريف كامل، ومع ذلك فإنه غير إجرائي إلى حد بعيد بالنسبة للمدرس عندما يتعلق الأمر بالتعرف على مفهوم ما. ونصادف فيه العناصر التي يدعوها ج. برونير G.BRUNER، وبشكل مغاير قليلاً في تعريفه كما يأتي:

- بطاقة = تسمية،

- مواصفات = صفات أساسية،

- أمثلة.

ولكي تكون " كلمة " مفهوماً، يجب أن تكون هذه العناصر ممكنة الإظهار⁽¹⁾.

في حين نقرأ في الاقتباس الثاني: (فاللفظة الأجنبية المقابلة لكلمة المصطلح، وهي TERM انحدرت من اللفظ اللاتيني TERMINUS، الذي

1- Brith-Mari Barth- les dossiers du C.E.P.E.C- No10-Decembre 1981-page12

معناه الحد. وبالمزج ألفت كلمة TERMINOLOGIE التي تعني العلم الذي يستطيع وضع الحدود للمفاهيم^(٢).

وانطلاقاً مما تقدّم، إن أحسن تمثله، فإن التعلّم، التعليم والتدريس هي مفاهيم، ولو قوبلت بتعريفات تركيبية لأجراتها. وعلى خلاف المصطلح، فإن المفهوم قابل للنمو والاتساع في مجالات البحث العلمي، أو في أذهان المتعلمين مسائرة لتطور قدراتهم، ودرجة شحذها.

وسادساً؛ ورد في الصفحة ١١٧ ما يتبع: (يوجد في اللغة الدارجة أو المحكية مصطلحان هما تقويم وتقييم، والثاني أكثر شيوعاً وجرياناً على الألسن، والعوام عادة يفرقون بينهما في الاستعمال، ولا يستعملونهما كمترادفين، بل يستعملون "تقويم" بمعنى تصحيح الاعوجاج، و"تقييم" بمعنى تسمين الشيء أو بيان قيمته...). وإذا كان البحث ينزع إلى مجازة الأكاديمية، فلا أظن جواز نزوله إلى اللسان الشعبي المضطرب والمشوش، واستخباره في شأن قضية شائكة.

وزد على ذلك، أن اللهجات الشعبية محلية، ومحدودة التداول، وكل جماعة انفردت بلهجتها، ودرج لسانها عليها. ونحن، من باب التمثيل، في المغرب العربي، وفي الشرق الجزائري تحديداً، نخالف في دارجتنا ما نصت عليه الفقرة، إذ نوظف كلمة "تقويم" بمعنى تقدير مادي أو معنوي. وإذا اختلف متخصصون حول مقدار أو جودة سلعة أو بضاعة تتادوا: (تعالوا نقومها، أي نقدرها وزناً أو ثمناً). ولا نصادف بتاتا لكلمة "تقييم" أي استعمال في مثل هذه

٢. مرقاض عبد المالك (دكتور) - صناعة المصطلح في العربية - مجلة " اللغة العربية" للمجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر) - العدد الثاني - ١٩٩٩ - الصفحة ١١.

السياقات. واعتباراً لما ذكرت، يتبين لي، بأن دمج هذه النقطة في هذا البحث بالذات مضر باللغة العربية الفصحى، ومشكك في غناها وخصوبتها.

وسابعاً؛ لاحظت انتقائية وفرزاً محبكين في بعض سطور الصفحة ١٢٠. وإشكاليات البحث العلمي لا تفض بعدد كثرة المناصرين أو المناوئين، والعدد في هذا الشأن ليس معياراً للقياس، وإلاً أصبح الأمر سجلاً بين المكثرين والمقلين من استعمال هذا المفهوم أم ذلك. والقول بأن كثيراً من الرواد التربويين استعملوا "التقويم" بمعنى بيان قيمة الشيء أو تسمينه، "حجة" غير مريحة و"إثبات" غير مقنع. لأنه وفي المقابل هناك من المربين العرب من استعمل كلمة "تقويم" بالمعنى نفسه عن إدراك ووعي، وعددهم أكثر من كثير، وفي الإمكان ذكر عينة من إخواننا المربين المشرقين ناهيك عن المغاربة، ومنهم:

- الدكتوران يوسف ونايفة قطامي في كتابهما: نماذج التدريس الصفي.

- الدكتور جابر عبد الحميد في كتابه: استراتيجيات التدريس،

- الدكتور سعيد بامشموش وآخرون في كتابهم: التقويم التربوي،

- الدكتورة رمزية الغريب في كتابها: التقويم والقياس في المدرسة الحديثة،

- الدكتور أحمد حسين اللقاني في كتابه: المناهج بين النظرية والتطبيق،

- الدكتور رشدي طعيمة في كتابه: مناهج تدريس اللغة العربية بالتعليم الأساسي.

- ...إلخ.

ويمكن لهذه القائمة أن تطول متعززة بأسماء وعناوين أخرى.

وثامناً، إذا كان " قَوْم " معناه أصلح اعوجاجه، ودرأ عيوبه، وجبر نقائصه. فكيف يحصل ذلك افتراضاً إذا لم يكشف عن مراقد الاعوجاج والعيوب والنقائص؟. أفلا يرى بأن التقييم مندرس ومندفن ضمناً في التقويم الذي يتصف بالرحابة والشمولية؟. وأعطف على ذلك، أن التقويم أرسخ وأقدم طالما أن أمهات المعاجم العربية العتيقة لا تذكر في بطونها سوى مادة (ق و م).

وتاسعاً؛ وبدت لي في نتيجة البحث أو في فذلكته (والفذلكة تقويم، فذلك حسابه أي أنهاه وفرغ منه، وهي مخترعة من قول الحاسب إذا جمل حسابه فذلك كذا وكذا إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته...)، بدت لي بعض الألفاظ الحادة والأحكام القطعية. ويا حبذا لو استبدلت بها نظائر اللفظ وأرق.

فالسبوح العلمية، لا يجوز لها أن تفضي إلى نتيجة كالوَاد (وأد تقويم كمصطلح علمي...) (ص ١٣٧)، أو إلى التجريم والتخريم. ففي ذلك خنق للرأي الآخر، ورفض للقول المخالف، وإساءة لقلادة الموضوعية التي يتزين بها الباحث. وأي ضمير يلحق بنا إذا اجتهدنا في التحري والتقيب، ولم نتوصل إلى نتيجة فاصلة؟ فليكن التوقف عند الشك حتى تتوفر أسباب اليقين، وينقشع ضباب الريبة ويلوح مخرج مريح تتشرح له الصدور، وتهنأ به العقول.

وفي الأخير، أتمنى أن تحل ملاحظاتي محل الصواب، وأن تكون مؤازرة لجهود الدكتور سبع أبو لبدة الذي أهنته تهنة خالصة عن شجاعته لاقتحام دهاليز مثل هذه المواضيع المقلقة حقاً. وأستغفر الله من كل هفوة أو زلة.